بقلم: أسامة محيسن العبد

مشاعل على الطريق

فيدة: زهرة نبتت في نيسان...

استغلت سلطات الاحتلال الضجة الاعلامية والاحتجاجات العالمية التي جزرة التي نفذتها في قرية "نحاليم" للتغطية على مذبحة من نوع آخر نفذتها السلطات في مخيم الدهيشة ولمغافلة الرأي العام المشغول بمذبحة "نحاليم"... حيث قتلت بدم بارد ثلاثة من سكان المخيم في ثلاثة أيام متتالية (١٥، ١٦، ١٧/٤/٨٩). وكان أول الشهداء عماد قداح (٢٤ سنة) وآب لطفلة في الشهور الأولى من عمرها، الذي قتل برصاص قناص وحظر تجول شديد مفروض على المخيم. دون أن تسجل أية حوادث رشق للجنود أو وقوع اشتباكات. وفي اليوم الثاني قتل الشهيد ناصر القصاص (١٧ سنة) وسط مجموعة من أصدقائه... أما في اليوم الثالث فقد سقطت على أرض المخيم زهرة بريئة في أوج تفتحها..، وكانت أول شهيدة في المخيم وفي منطقة بيت لحم منذ بدء الانتفاضة. هي فيدة أبو لبده (١٤ سنة).

وفي أوائل حزيران الماضي التقيت مع والدها في مؤتمر صحفي نظمته مجموعة تطلق على نفسها "لجنة حواء القدس - الدهيشة" وتضم ممثلين عن فعاليات مخيم الدهيشة وجزء من أعضاء حركة السلام الآن في القدس. حضر المؤتمر الذي عقد في القدس الغربية ممثلون عن الصحافة العالمية والمحلية وفوجئ الحضور بتواجد عدد من المستوطنين في المؤتمر الذين حاولوا من خلال أسئلتهم الإيحاء لجمهور الحضور بأن الجيش الاسرائيلي حين يقتل الناس الأبرياء انما يفعل ذلك ضمن "الدفاع عن النفس"، وإذا أراد المواطنون منع تلك الحوادث فعليهم ايقاف الانتفاضة والعيش بسلام مع جيرانهم المستوطنين.. وبعد نقاش مرير طلب خليل أبو لبده (والد الشهيدة فيدة) الكلام وقال بوضوح: "لن نوقف الانتفاضة حتى نحقق أهدافنا في الدولة وتقرير المصير، وابنتي استشهدت من أجل هذه الأهداف وتحقيق الحلم بالعيش بسلام وحرية تحت علمنا".

وأضاف :

"بقي عندي في البيت سبعة أنفار. على استعداد لتقديمهم عن طيب خاطر، من أجل أن يتحرر الوطن"

ليلة عيد الأضحى زرت منزل الشهيدة رفيدة. الذي يقع في آخر شارع رصفه الشباب بالأمس. وأسموه "شارع الشهيدة رفيدة".

وجدنا والد الشهيدة ومعه مجموعة من الشباب مشغولين في إغلاق باب المنزل وفتح منفذ آخر وتركيب باب من الحديد يحمل هيبة جنود الاحتلال. بعد أن رحب والد الشهيدة بنا، أنا ورفاقي، اعتذر عن الجلوس معنا. ليشرف في عملية إتمام تركيب الباب. قبل فرض حظر التجول المتوقع من قبل الأهالي. حيث إعتادت سلطات الإحتلال فرض حظر التجول في كل عيد خلال السنتين الماضيتين. جلسنا مع أم الشهيدة في غرفة متواضعة زينت جدرانها بعدة صور للشهيدة "رفيدة" وقد قامت بتطريزها كلام بألوان العلم الفلسطيني، منها "استشهاد الطفلة رفيدة أبو لبن: صرخة في وجه العالم ووصمة عار في جبين الاحتلال الفاشي" و "رفيدة أبو لبن: جرحًا راعفًا في صدر الوطن وشعلة حمراء تنير لنا درب الكفاح".

ونحن نشرب القهوة. سألت أم الشهيدة عن العيد ومظاهره في المخيم. قالت:

"بدون مبالغة لنا "٤" سنة لم نُعيِّد.. فمنذ سنوات الثورة الأولى والعيش في الخيام... حتى يومنا والمخيم يقدم الشهداء.. وكان دائمًا في مواجهات مع الطلقة" وتضيف السيدة عائشة أبو لبن (٤ سنة):

"... ولذلك فقد دفع المخيم الكثير ثمنًا "لمناعته" من تشريد واعتقالات ونفي وهدم بيوت..."

- وهذا العيد كيف قرينه...؟!

أجابت بعد ابتسامة صغيرة:

"بدون أن أراه أو يراني... فمن عائلتنا مثلاً.. ابني استشهد ولي ولد في المعتقل.. وزوج ابنتي خرج من السجن قبل أسبوعين بعد أن أمضى فترة تعذيب.. وقبل أيام جرح أحد الشباب من العائلة.. هذه همومنا في جانب منها، أي نستطيع أن نتغلب عليها.. ولكن هموم جيراننا وأهلنا.. نأسى لها المخيم أيضًا هي همومنا.. والقلب غير راضي ليفرح بالعيد..."

تتدارك بعد برهة:

"كنا نقول العيد للصغار.. لكن آه من الصغار يشعروه بأبي"

يوم عادي .. فإذا لعبوا فإنهم يلعبون لعبة (جيش .. وفلسطينيين) .. أو لعبة "التحقيق" ودائماً في الحارات يراقبون حركات الجيش لتبليغ الشباب الأكبر منهم سناً".

كنت أحاول أن أجد طريقة مناسبة للحديث معها حول ظروف استشهاد رفيدة، حتى على الأقل انطلاقها في الحديث رغم الكم الهائل من الحزن الذي تختزنه في عينيها. وبدون أن لاحظت تردد، همست لتغني :

- ما الذي تريد أن تسأله عن رفيدة؟ أسأل ولا يهمك. "فهذا خد تعود على اللطم".

وقبل أن أجيب قالت :

"الموت حق ... ونحن لا نزعل من الحق ... وكل تضحياتنا من أجل استعادة حقنا في العيش فوق تراب وطننا بسلام وأمان ..."

أضافت "آلاء" عندي ثمانية .. إبنتان .. وستة أولاد .. فيهما كلهم أسماء تيمنا بقائد الثورة الكوبية .. وأدهم على اسم أدهم الشرقاوي .. "رفيدة" كانت النسمة الجميلة في حياتنا .. نشيطة .. تقوم بعمل البيت والعناية بأخوتها وحين إستشهدت تمنيت لو كان أحد أخوتها هو الذي استشهد فداء لها .. الله يخليهم لي وللوطن ..."

- لو تروي لنا مع بعض التفصيل اليوم الأخير لرفيدة ...؟؟

"يوم ١٧/٤ اخترقت مظلة التجول المفروضة على المخيم مسيرة احتجاجاً على قتل الشاب ناهض القصاص. طافت المسيرة في شوارع المخيم قبل أن يفرقها الجنود برصاصهم وبالقنابل الغازية .. كنت في البيت لوحدي أنا والبنت الصغيرة ... والأولاد وأبيهم في المسيرة .. بعد أن تفرقت المسيرة .. خرجت على أصوات الجنود خلف المنزل في مشاجرة مع الشبان "رفيدة" ... كانت رفيدة التي تلهث تصرخ في وجوههم قائلة : لماذا لا تقتلوه غير الشباب .. إقتلوني .. لم تقتلوا الى الآن أي امرأة .. اقتلوني جبناء ... جبناء ... ثم أدخلتها البيت .. وهي تقول متأثرة : لو رأيتِ أم الشهيد وصورته .. ليتني كنت أنا بدلاً منه ..."

وتضيف السيدة عائشة :

"نجحت في تهدئتها ... وبعد فترة طلبت أن تخرج لتطمئن على أخوتها. رفضت .. وأنا أقول لها بلسان قلبي : لا تخرجي .. هذه المرة فقط لا تخرجي. ووافقت على خروجها بعد إلحاح شديد منها ... و ..."

التقطت السيدة عائشة أنفاسها وتابعت :

"سمعنا عن بنت أصيبت .. فخرجت أجري أنا والجارات .. وفي الطريق

عرفت أن البنت هي رغيدة وأن الشباب قد نقلوها الى المستشفى أسرعنا الى المستشفى في بيت لحم .. وهناك عرفنا أنها استشهدت وأن الشباب نقلوها الى قرية إرطاس المجاورة للحيم لدفنها .. لا أستطيع أن أصف شعوري لحظتها .. لم أبكي .. لم أفكر .. التقينا عند المستشفى مع والدها وانطلقنا الى إرطاس .. وهناك وجدنا مجموعة من الشباب الملثمين يرفعون الأعلام والبنادق النشن بعلمنا .. وتم تشييع جثمانها بحضور أهالي قرية إرطاس الذين شكل شبابها حماية للجنازة خوفاً من مداهمة الجنود وخطف الجثة .. ووضعوا نقاط مراقبة .. وقالوا وعاهدوا الوطن بأنه لن يدخل أي جندي للقرية الا على أجسادهم ..."

طفرت دمعة من احدى عينيها، مسحتها بسرعة وتابعت:

" بعد أن إنتهينا من عرس دفنها حاولنا دخول الحيم بصحبة الصليب الأحمر فلم يسمح لنا الجنود . فدخلنا تهريب وصلنا البيت وجدنا الاعلام الفلسطينية ترفرف على البيت الذي إمتلأ بالناس ..."

اثناء حديثنا دخل الى الغرفة عدداً من الأطفال وقدموا لي الفتاة (د.ل) (١٤ سنة) التي كانت بصحبة رغيدة وقت إستشهاد الأخيرة.

قالت (د.ل):

" حضرت "رغيدة" صديقتي الى بيتنا .. وأنا مشغولة بأعمال البيت وطلبت مني أن نخرج سوياً .. ولكنني أخبرتها بأنني لا أستطيع الخروج حتى أنهي عمل البيت . فانكبت تساعدني حتى أنهينا عمل البيت . وعند ذلك سألتها أين سنخرج ولماذا ... ؟ . أجابتني وهي تستعجلني .. الى الجبل لنأتي بأطارات للشباب لأشعالها .. لحقتها وهي تسير أمامي الى الجبل المجاور وفي الطريق التقينا أحد الشباب الذي سألنا :

- أين تذهبان ... ؟

- الى الجبل .. لنجمع اطارات ..

طلب منا الشاب الرجوع الى البيت . لكن رغيدة رفضت واكرعنا في سيرنا .. والتقينا بجوف الذي طلبت منا العودة الى البيت لأن الجبل غير آمن .. ولكننا لم نسمع كلامه . وصلنا الجبل . رأينا أحد الجنود خلف احدى الصخور . وفجأة صرخت رغيدة وسقطت وهي تتلوى بشدة و تستطيع أن ترى أثر الدم في المكان الذي سقطت فيه "

وفي المكان الذي سقطت فيه رغيدة أرسم الوطن بدمائها . غرس والديها زيتونة وغداً ستتوجه مسيرة تزور أهالي وقبور الشهداء وتزرع الملك على تلك الزيتونة .